العودة إلى المكان، هي التي تفجر الزمان في ذاكرة سعيد.س. وفوق ذلك المكان يعيد صياغة فتات لحظات الزمن الهارب.

تلك الصياغة تأتي بصورة عقلانية تتنافى مع معاني انهيال الذاكرة التي اشير إليها في البداية، فالتحديدات الزمنية الصارمة (مثل: «صباح الاربعاء، ٢١ نيسان، عام ١٩٤٨) (ص ٣٤٦)، وغيرها ، تفسد تلقائية الذاكرة. وحتى الانعطاف من الآني إلى الماضي، لا يتم بصورة عفوية وإنما بمقدمات تشير إليه، مثل...«وفجأة» جاء الماضي، حاداً مثل سكين: كان...» أو «وعندها جاء الماضي بكل ضجيجه. ولأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفصيل، وكأنه يعيشه مرة اخرى» (ص ٣٤٦).

إن تلقائية الانتقال من الحاضر إلى الماضي التي برزت في الروايتين الاولى والثانية مفقودة هنا، فكأنها بالشكل العقلاني الصارم التي حلت به، تشير إلى عقلانية الكاتب التي بدأت تحكمه في المرحلة التي كتب فيها هذه الرواية.

النظرة العقلانية ذاتها، تظل تحكمه في التعامل أيضاً مع المكان، المدينة التي عاد اليها بعد هزيمة فأنكرته، والبيت الذي عاد إليه بلا انتصار فانكره. ليكتشف بأن الوطن هو، بالنسبة لجيل ابنه «خالد» ليس مجرد ذاكرة ولا هو مجموعة الأشياء الصغيرة والاماكن المتعددة، بل هو شيء أكبر من ذلك، شيء جدير بالشهادة.

– «لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل» (ص ٤١٢).

– «... التاريخ ليس كذلك، ونحن حين جئنا هنا كنا نعاكسه، وكذلك، اعترف لك، حين تركنا حيفا، إلا أن ذلك كله شيء مؤقت» (ص ٤١٣).

تلك نماذج اخرى من النظرة العقلانية لرؤية شكل من أشكال علاقات الزمان والمكان، تتقدم الينا، مرة اخرى، بصورة ذهنية مفرطة.

وفي رواية «العاشق»، محاولة لم تكتمل لاعادة فوضى العلاقة مع الزمان والمكان، فالزمن لا ينمو بمساره فحسب، بل أيضاً في ارتداداته التلقائية في وعي شخوص الرواية. أما المكان الروائي فهو متحرك مع حركة الشخصية المحورية.

فالزمن الروائي هنا، هو زمن الفلسطيني على أرضه، زمن مواجهة الاستعمار البريطاني. والمكان هو فلسطين قبل أن تتحول إلى ذكرى.

ومع أن الرواية لا تحدد زمانها، إلا أننا نلمسه ونحسه. وهي لا تتعامل مع المكان كذكرى، وإنما كواقع ملموس لا يسقط في الماضي... مع انه يتحدث عن لحظة ماضية.

وثمة، في هذه الرواية، تفصيل يشير إلى علاقة الانسان بالزمن في لحظة مشخصة،